د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة - جامعة عنابة - الجزائر
saifalislamsaad@yahoo.fr

تجليات صورة المثقف في الخطاب الروائي العربي
-وقفة مع منظور محمد البارودي-

The manifestations of the intellectual image in the Arab narrative discourse -Pause with the prospect of Mohammed Al-Baradi-

تاريخ الاستقبال / Date de soumission	تاريخ القبول/ Date d'acceptation
16.06.2019	07.07.2019

تاريخ النشر / Date de publication
20.11.2019

ملخص

إن دراسة شخصية المثقف في الرواية العربية المعاصرة،تقتضي إحاطة شاملة بجملة من الأبعاد الفكرية، والفنية، ورصداً للعديد من التحولات والتطورات الاجتماعية على الصعيد العربي،فعلى الرغم من أهمية موضوع «شخصية المثقف في الرواية العربية المعاصرة»،غير أنه لم يحظ باهتمام كبير من قبل الدارسين، ولم يُتناول باستفاضة،فمن خلال محاولتنا رصد أهم الأبحاث التي أنجزت حوله، والتي تندرج تحت لوائه، نلفي قلة من الكتاب من تعرضوا لهذه القضية الهامة، ومن بين هؤلاء نذكر: الدكتور عبد السلام محمد الشاذلي، الذي أماط اللثام، وكشف الحجب على مرحلة من المراحل التي مرت بها الرواية العربية في مصر، وذلك في دراسته الموسومة ب:«شخصية المثقف في الرواية الفنية العربية الحديثة بمصر1834-1952م»، ومحمد رياض وتار الذي تطرق للرواية العربية السورية، وذلك في كتابه:«شخصية المثقف في الرواية العربية السورية»،وكل من الأستاذين: بوعلي ياسين، ونبيل سليمان في كتابهما القيم:«الأدب والأيديولوجيا في سورية:-1967 1937م»، ودرس الناقد محمد كامل الخطيب في كتابه:«الرواية والواقع» شخصية المثقف في العديد من الروايات العربية،كروايات هاني الراهب، وجبرا إبراهيم جبرا، وحليم بركات، كما تناول مجموعة من الباحثين صورة المثقف في القصة الجزائرية وذلك في كتاب:«صورة المثقف في القصة الجزائرية المكتوبة بالعربية»، ومما لا يشوبه ريب أن الدراسات التي ذكرناها سلفاً ذات قيمة علمية وأكاديمية،

وتمثل إضافات قيمة على مستوى الساحة العربية،بيد أن موضوع تجليات المثقف وصورته يحتاج في نظرنا إلى دراسات أخرى أوسع، وذلك نظراً لاتساع الموضوع نفسه،فالرواية العربية مرت بمراحل لاحقة، ولم يُرصد هذا الموضوع فيها.

ويهدف هذا البحث إلى عرض منظور الروائي والناقد التونسي المعروف، والمتميز الدكتور محمد رجب البارودي، أستاذ الأدب المقارن بالجامعة التونسية سابقاً،ومؤسس مركز دراسات الرواية العربية، والمشرف على ملتقى الرواية العربية ومؤسسه كذلك، ومدير مهرجان قابس الدولي لعدة دورات، فقد عرفنا الدكتور محمد البارودي-رحمه الله- من خلال إنتاجه الأدبي، والذي تجلى في شقين رئيسين هما: الجانب الإبداعي، والجانب النقدي، فبقدر ما أسهم في إثراء الحركة الإبداعية، والسردية في الوطن العربي، بالعديد من الأعمال المهمة،مثل: «مدينة الشموس الدافئة»، و«الملاح والسفينة»، و«قمح إفريقيا»، و«الكرنفال»، التي حازت على جائزة الكومار الذهبي سنة:2004م، فإن له إضافات ثرة على مستوى الساحة النقدية العربية كذلك، وهو صاحب رؤى، وأفكار عميقة في هذا الميدان، ومن بين دراساته النقدية: «الرواية العربية الحديثة»، و«في نظرية الرواية»، و«سحر الحكاية: الراوي، والمروي، والميتاراوي في أعمال إلياس الخوري»، وغيرها.

وليس لأحد أن يشكك في أن المجال الذي ظهرت فيه براعته،هو مجال نقد الرواية، ولذلك سأركز في هذا المقال على جهوده البارزة في دراسة صورة المثقف في الخطاب الروائي العربي، وأتوقف على وجه خاص مع دراسته القيمة لشخصية المثقف في الرواية العربية المعاصرة، والتي تقتضي إحاطة شاملة بجملة من الأبعاد الفكرية، والفنية.

الكلمات المفتاحية

تجليات، صورة، المثقف، الخطاب، الروائي، العربي.

Abstract

The study of the personality of the intellectual in the contemporary Arabic novel requires a comprehensive briefing on a number of intellectual and artistic dimensions, and the monitoring of many social transformations and developments on the Arab level. Despite the importance of the subject of "the personality of the intellectual in the contemporary Arab novel", he did not receive much attention from Before studying, and did not address at length, through our attempt to monitor the most important research carried out around him, which fall under his banner, we address a few writers who have been exposed to this important issue, among them: Dr. Abdul Salam Mohammed Al-Shazly, which revealed, Stage of the stages passed by The novel of Arabic in Egypt, in his study entitled: "The personality of the intellectual in the modern Arabic art novel in Egypt, 1834-1952", and Mohammed Riad and Tarr, who touched on the Syrian Arab novel, in his

book: "The personality of the intellectual in the Syrian Arab novel," and both professors: In the book "The Novel and the Reality", the critic Muhammad Kamel Al-Khatib studied the personality of the intellectual in many Arab novels, such as the novels of Hani Al-Rahab, Jabra Ibrahim Jabra, and Halim Barakat , And a group of researchers addressed the image of the intellectual in the Algerian story, in the book: The image of the intellectual in the Algerian story written in Arabic », and it is indisputable that the studies that we mentioned before have scientific value and academic, and are valuable additions at the level of the Arab arena, but the subject of manifestations of the intellectual and his image in need of other studies are broader, The Arabic novel passed through later stages, did not monitor this subject in it.

This research aims at presenting the perspective of the famous Tunisian novelist and critic, Dr. Mohamed Ragab El-Baradi, Professor of Comparative Literature at the former Tunisian University, founder of the Center for Arabic Novel Studies, supervisor of the Arab Novel and its Founder, and the director of the Gabès International Festival for several sessions. God has mercy on him - through his literary production, which was revealed in two main parts: the creative side, and the monetary aspect, as much as it contributed to enrich the creative movement, and narrative in the Arab world, many important works, such as: «the city of warm suns», « Navigator and ship ", and" F-wheat And the Carnival, which won the Golden Comar Prize in 2004, has rich additions on the Arab monetary scene as well, and has insights and deep insights in this field. Among his critical studies are the Modern Arabic Novel, And "in the theory of the novel," and "magic story: narrator, and Merawi, and Mitarawi in the work of Elias Khoury," and others.

In this article, I will focus on his outstanding efforts to study the image of the intellectual in the Arab novelist discourse. I particularly pause with his valuable study of the personality of the intellectual in the modern Arabic novel, which requires Comprehensive briefing with a range of intellectual, artistic and intellectual dimensions.

key words

Manifestations, intellectual image, speech, novelist, arab.

مقدمة

دأبت جملة من الروايات العربية، منذ نشأة هذا الفن ودخوله للساحة العربية، على التركيز على أهمية المثقف، ودوره البارز، وشتى تجلياته ومواقفه، وهواجسه، وسلوكياته، فنجده مُجسداً في شخصيات شتى سواء أكانت رئيسة أم ثانوية، فقد أخذت الرواية العربية على عاتقها إبراز صورة المثقف التي تكتسي أهمية استثنائية، وذلك نظراً لأنها تقدم ملامح عن الثقافة العربية قاطبة،كما أنها توحي بالتجربة العميقة، والرؤية المتبصرة، وفقاً للثقافة التي يحملها هذا المثقف،ولجملة المؤثرات التي كونته وصقلته، ونظراً لما تمليه الطروحات التي يحملها، ويقتضي منا الأمر بادئ ذي بدء أن نعرّف ماهية المثقف،وما يُقصد بهذا المصطلح؟

فمصطلح المثقف يحمل جملة من الدلالات، وبالإمكان تقديم مفاهيم جمة، تندرج تحت إطاره، فبمفهومه الواسع: هو الشخص المستوعب، والمدرك لثقافة مجتمعه، وله مقدرة على تحليلها، وتفكيك بُناها، وله قدرة على تعميق إيجابياتها، وهو أكثر الناس صلة بالمعرفة، وإذا أردنا تقديم مفهوم محدد: فهو ذلك الشخص المشتغل بالثقافة،على أساس أنها نشاط من النشاطات الإبداعية والفنية، كما أنه يمارس أعمالاً ذهنية تلعب دوراً في ترسيخ الوقائع القائمة.

وعندما نتبصر في بعض المفاهيم التي وضعها طائفة من المفكرين، فإننا نخرج برؤى متباينة، فالمثقف كما رآه إدوارد سعيد:«هو ذلك الشخص الموهوب، والذي يملك المقدرة الشخصية على تمثيل، وتجسيد هموم شعبه، وتوصيل رسالته، ورؤيته، وموقفه، وأفكاره، وآرائه للناس، ومن أجل الناس، مع ما يصاحب هذا الدور من محاذير».

وفي نظر أنطونيو غرامشي:«كل الناس مثقفون، لكن ليس لهم كلهم مقدرة على تأدية وظيفة المثقفين في المجتمع»، وقد انصرف غرامشي إلى مفهوم المثقف العضوي الذي يؤدي وظيفة محددة في المجتمع، كما أنه منخرط في خدمة مصالح طبقية اجتماعية، أو ثقافية، أو اقتصادية، وغيرها من شتى المجالات.

وأما جوليان بيندا فقد تمثل أهل الثقافة على أنهم «عصبة صغيرة من الملوك الفلاسفة الذين يتحلون بموهبة استثنائية، وبحسٍ أخلاقي فذ، ويشكلون ضمير البشرية،فهم من أمثال: يسوع المسيح، وسقراط، وسبينوزا، وفولتير، ونيتشه، وارنست رينان، كما أنهم يُعرِضون أنفسهم لمخاطر النبذ، والملاحقة، والمحاكمة، وكما رأى فهم قليلون جداً».

ويذهب جان بول سارتر إلى أن المثقف«ذلك الكائن الشاهد على عصره، والمتمثل لضمير الجماعة، وهو الذي يتدخل فيما لا يعنيه، وأشار إلى أن المثقفين ينقسمون إلى

قسمين: المثقف الحقيقي، والمثقف المزيف، فالحقيقي هو من يقول (لا)، والمزيف هو الذي يقول (لا ولكن)».

وبتأملنا في فكرنا العربي المعاصر، يمكن أن نستشف أن الرؤى الفكرية العميقة لشخصية المثقف، بدأت تتبلور، وتظهر بشكل جليٍ منذ عقد التسعينيات، حيث برز عدد من المفكرين حاولوا التعمق في ماهية المثقف، ورصد شتى دلالاته، وتتبع أدواره،كما سعوا جادين إلى التأصيل لها، ومن أهم المفكرين العرب الذين تعمقوا في هذا الميدان، نذكر: الدكتور محمد عابد الجابري، في كتابه: «المثقفون في الحضارة العربية»، وإدوارد سعيد - الذي أوردنا تعريفه سلفاً - في كتابه المتميز«صور المثقف»، وعلي حرب في كتاب:«أوهام النخبة»، وعلي أومليل في دراسته:«السلطة السياسية والسلطة الثقافية»، وسواهم من كبراء المفكرين المعاصرين، أمثال:عبد الإله بلقزيز، ومحمد أركون، وجورج طرابيشي، وفهمي جذعان...

وبالنسبة لموضوع المثقف وتجلياته في الرواية العربية المعاصرة،فإن جملة من الأسئلة تتشكل في ذهن المتبصر في هذا الجانب،فكيف قدم الروائيون الشخصيات المثقفة؟ وما هي الطريقة التي صُور بها المثقف؟ وهل عكست الرواية العربية صورة المثقف الحقيقية، وذلك عبر مختلف الإيديولوجيات التي تعاقبت على عالمنا العربي؟ وهل لإبداعنا الروائي قدرة على تمثل وتجسيد القضايا الفكرية المعاصرة التي شغلت بال المثقف...؟

ويبدو أن كتاب: «شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة» يعدّ أحد أهم الكتب التي تناولت هذا الجانب في إبداعنا الروائي المعاصر،بالدراسة والتحليل،فمؤلفه هو الدكتور محمد رجب الباردي، الروائي المتميز، وأستاذ الأدب المقارن بالجامعة التونسية، فبقدر ما أسهم في إثراء الحركة الإبداعية والسردية في الوطن العربي،بالعديد من الأعمال الهامة، مثل: «مدينة الشموس الدافئة»، و«الملاح والسفينة»، و« قمح إفريقيا»، و«الكرنفال»، التي حازت على جائزة الكومار الذهبي سنة: 2004م، فإن له إضافات ثرة على مستوى الساحة النقدية العربية كذلك، وهو صاحب رؤى وأفكار عميقة في هذا الميدان، ومن بين دراساته النقدية:«الرواية العربية الحديثة»،«في نظرية الرواية»،«سحر الحكاية: الراوي، والمروي، والميتاراوي في أعمال إلياس الخوري»، وغيرها.

يسعى الدكتور الباردي إلى التأكيد،على أن المثقف حاضر في الرواية العربية حضوراً قوياً، وذلك منذ إطلالة فجرها، وما نشير إليه هو أنه يسلط الضوء على مرحلة محددة ابتداءً من سنة: 1958 إلى غاية 1976م، ويرى بأن هذه المرحلة تستميز بأهميتها،نظراً لجملة من الأحداث، والتحولات التي شهدتها، فتحركت معها الكثير من القيم والمفاهيم، كما أن

الروايات التي انتقاها تعبر عن نماذج متنوعة من المثقفين، فلا ريب أن أنماط المثقفين تتنوع وتتعدد، فلا تلفي نوعاً واحداً من المثقفين في الرواية العربية المعاصرة، بل إن هناك صوراً ومواقف متعددة ومختلفة من رواية إلى أخرى، ومن النقاط التي أشار إليها في تقديمه لهذا السفر:

- أهمية دور المثقف في المجتمع، وضرورة الاهتمام بقضيته وإبرازها، كما يطرح سؤالاً رئيساً، وهو السؤال الذي تقوم على أساسه الإشكالية الكبرى للكتاب،إلى أي مدى انعكس الانشغال النظري بقضية المثقف والثقافة في الرواية العربية المعاصرة؟

- لقد سعت الرواية العربية منذ نشأتها في اتخاذ شخص المثقف بطلا رئيساً،ويقدم الدكتور الباردي العديد من الأمثلة على ذلك، منذ الرواية الأولى «ألم يكن حامد بطل رواية «زينب»، وهي الرواية الأولى في الأدب العربي المعاصر حسب اعتقاد جل النقاد مثقفاً؟

ومحسن وأعمامه أبطال رواية «عودة الروح» أليسوا من المثقفين أيضاً؟

وفي سنة: 1938 أصدر توفيق الحكيم أيضا روايته«عصفور من الشرق» وهي رواية بطلها طالب مصري ترك الأهل والوطن بحثاً عن العلم والمعرفة. لكن باريس – الحضارة - تغمره بطريقة عيشها وتفرض عليه نوعاً من العلاقات. فإذا بمحسن المثقف قد أدرك أنه يتعامل مع محيطه بأخلاقياته الشرقية وإذا بالعصفور يختنق في القفص.

وفي سنة: 1943 صدرت رواية «قنديل أم هاشم» ليحيى حقي، فعرضت علينا كذلك بطلاً من المثقفين الذين تعلموا في أوروبا بلاد العقل والتحرر من التقاليد الواهية فهذا إسماعيل يعود إلى مصر طبيباً بعد سبع سنوات قضاها في دراسة الطب، وكان قبل أن يغادر بلده لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً غير واضح لكنه يعود وقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه إلى بلده مصر وقد علّمته أوربا أن العلم عقيدة تفتح المغلق وتوضح المبهم ولكنه بعد تجربة في الوطن قاسية أيقن أن العلم و الإيمان كشن وطبقة، وفي سنة 1954 وقد بدأ الأجنبي المستعمر يفكّ عن أرض العرب حصاره، ظهرت رواية سهيل إدريس «الحي اللاتيني» لتبرز نمطاً آخر من المثقفين العرب ففي باريس أيضاً عرف البطل المرأة على حقيقتها، وقد عاش من حياته أولها في مجتمع طهري متزمت. و بعد تجارب عديدة مع حواء الأوروبية يكتشف ذاته فيعيش ذاك التمزق الحاد بين عقليته الشرقية وأفكاره الجديدة التي أتته من ممارسته لشيء من الواقع الأوروبي. لكنّ التمزق ينتهي بغلبة العقلية الشرقية ويعود الابن الضال إلى العشيرة»(01).

فمن خلال هذه الأمثلة يتبدى لنا أن المثقف قد جسد حضوره بقوة في الرواية العربية المعاصرة.

المثقف وصورته في الرواية العربية المعاصرة

يستعمل الروائيون العرب في رواياتهم العديد من المصطلحات، والكلمات المتصلة ببعضها البعض، وذلك للتعبير عن لفظ المثقف، ومن هذه المصطلحات: موظف، ومدرس، وكاتب، وفنان، وأديب، واقتصادي، وأصحاب الكتب، وغيرها.

وقد استفاض الدكتور محمد الباردي في شتى الاستعمالات الموظفة من قبل الروائيين، فقدم جدولاً تفصيلياً رصد من خلاله الاستعمالات الهامة، التي وردت في الروايات التي يقوم بدراستها، وقد تواتر مصطلح مثقف، ومثقفون، وتثقيف، وثقافة، على لسان غالبية الشخصيات التي تعرض لها بالدراسة والتحليل، فقد وردت هذه الكلمة على لسان لينا فياض في رواية «أنا أحيا» لليلى بعلبكي، وفي رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ على لسان سعيد مهران، وفي رواية «الفلاح» لعبد الرحمن الشرقاوي، و«الوشم» لعبد المجيد الربيعي، و«الثلج يأتي من النافدة» لحنا مينة، و«أصابعنا التي تحترق» لسهيل إدريس، وسواها من الروايات العربية الأخرى، وتردد مصطلح «موظف» في العديد من الروايات، فورد في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»، ورواية«بيروت75»، و«الوشم»، و«الطيبون»، وغيرها،وقد استعمل هذا المصطلح للدلالة على القائم بشؤون إدارية مقابل راتب شهري، وهو مصطلح مستحدث بالنسبة للثقافة العربية، كما تواتر مصطلح «أستاذ»، وكثر استعماله في جملة من الروايات كرواية «الأشجار واغتيال مرزوق»، و«أصابعنا التي تحترق»، و«اللص والكلاب»، و«الطيبون»، ومن المصطلحات التي تواترت استعمالاتها «كاتب» و«شاعر» و«أديب» و«رسام» و«مهندس»، وقد توصل الدكتور محمد الباردي، من خلال تحليله للكلمات المستعملة أن «هذه الكلمات البديلة التي استعملها الروائيون مرتبطة بالمهنة التي يؤديها المثقف في العالم الروائي ففياض كان فعلاً أستاذاً إذ كان يدرس والراوي في«موسم الهجرة إلى الشمال» كان موظفا حكومياً. وما من شك في أن مثل هذه المهن لا يمكن اعتبارها سمة أساسية من سمات المثقف إذ لا يجوز أن نقول إن كل الأساتذة مثلا أو الموظفين مثقفون، إلا أن أبطالنا يوظفون مهنهم لغايات يحتمها وعيهم الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي عامة، فصحيح أن منصور عبد السلام مثلا كان مدرساً للتاريخ قبل أن يطرد من الجامعة تعسفاً، ولكنه لا يعتبر مادة التاريخ مادة جامدة، وإنما يحاول أن يوظفها لغاية سياسية واضحة، وفياض أيضا في رواية«الثلج يأتي من النافذة» كان مدرسا لكنه كان مدرساً تقدمياً يوظف مهنته خدمة لأفكاره التقدمية ومقاومة لما يراه«رجعيا» في تفكير الآخرين وممارستهم.

وهي كذلك مرتبطة بهواية الخلق والإبداع التي يتعاطاها بعض الأبطال في الروايات المدروسة وبواسطتها يلجون عالم الثقافة والمثقفين»(02).

قبل أن يتطرق المؤلف إلى صورة المثقف في الرواية العربية يطرح قضية غاية في الأهمية،وهي العلاقة الرابطة بين الأدب والواقع، وكما يصفها فهي قضية من الصعب الحسم فيها، والانعكاس قد يلقى قبولاً عند فئة معينة، وعند فئة أخرى سيقابل بالرفض، وعلى اعتبار«أن الفن موقف وأن أشخاص العالم الروائي متخيلون فهل تكون صورة المثقف من خلال الرواية العربية صورة موضوعية تجد في الواقع الاجتماعي المعيش مبرراتها أم أنها لا تعدو أن تكون صورة الروائي المثقف من خلال روايته؟ والسؤال يطرح قضية أخرى شائكة وهي قضية صلة الفن بصاحبه.

إن ما يتخيله (المؤلف) لهو عالم موجود أي أن المتخيل قائم بالواقع المادي ولا يخرج عنه حتى في حالات الهلوسة والهذيان المحموم،إننا نتخيل بالأبيض والأسود كما نتخيل بالألوان ونحن مشروطون بالمعطيات الخارجية حتى في حالات الكتابات الروائية المستقبلية، إلا أن الشكل الفني الذي يختلف من رواية إلى أخرى قد يجعل الصورة التي نريد تحديدها تتأرجح بين الذاتية والموضوعية»(03)، ويقدم الدكتور الباردي العديد من الأمثلة في هذا الشأن، ومن ذلك أن بعض الروايات تندرج في إطار السيرة الذاتية فيكون الأنا الراوي بطلا رئيسياً،كما ظهر في رواية «أنا أحيا» لليلى بعلبكي،وفي أحيان أخرى يكون بطلاً ثانوياً، كما تجسد في روايتي«موسم الهجرة إلى الشمال»، و«الفلاح»، وهناك رواية تمازج، وتتأرجح بين الرواية والسيرة الذاتية، مثل: «أصابعنا التي تحترق» لسهيل إدريس.

مما يلفت إليه المؤلف الانتباه ذلك التقسيم الذي يضعه جملة من الدارسين، فيقسمون المثقفين إلى قسمين أساسيين: مثقف المدينة، ومثقف الريف أو القرية، فالأول هو الذي يتعلق بالصناعة وتطوراتها، وأما الثاني فهو المرتبط بالمراكز الريفية الصغرى، ويتساءل المؤلف إن كان المثقف في الرواية العربية خاضع لهذا التقسيم.

تجلت صورة المثقف الريفي في الرواية العربية في مستويين، المثقف المنحدر من الريف وبقي فيه، والمثقف الذي ورد عليه واستقر به.

برز المثقف الريفي أصلاً - كما يرى المؤلف - واضحاً تمام الوضوح في رواية«الفلاح» لعبد الرحمن الشرقاوي، فمثلته شخصيتان رئيسيتان، كل من شخصية الشيخ طلبة، والشيخ عبد المقصود، مدير المدرسة الابتدائية في القرية «وقد استطاع أن يصل إلى مراكز النفوذ في القرية، فهو إلى جانب إدارته للمدرسة الابتدائية والقسم الليلي لمحو الأمية مسئول في الاتحاد الاشتراكي والجمعية التعاونية. ولكنه من هذا الموقع الهام كان إلى جانب الفلاحين

متحالفاً معهم يقاوم المخالفات الجسيمة،ضد مصلحة الفلاح وضد التطور الثوري وقوانين الإصلاح، وهو لا يرث أرضاً لأن أباه كان فلاحاً عاملاً لا يملك أرضاً جديدة لأن قوانين الإصلاح الزراعي وزعت أراضي الإقطاعيين على الفلاحين الضعاف مثل أم سالم، أما الشيخ طلبة فهو إمام القرية بدأ حياته يرتل القرآن بصوته الجميل، وسرعان ما أصيب الحكيم الواعظ الناصح في القرية يسأله الناس الرأي والفتوى، وقد ظل في خدمة الطبقة الاجتماعية التي كانت سائدة قديماً ثم دخلت مرحلة الصراع مع طبقة الفلاحين المتحالفة مع البرجوازية الصغيرة، فمنذ أن جدت الأحداث في القرية إلى أن انتهت وهو يحاول ممارسة بقايا سلطته الروحية خدمة للإقطاعي رزق بيه الذي سمحت له طبيعة النظام السياسي القائم بالبقاء في مراكز النفوذ في القرية فهو يرفض فصول محو الأمية ويمنع ابنته تفيدة من حضورها ويرفض تعليم المرأة»(04).

وقد انطلقت مواقف الشيخ طلبة من مصالحه الشخصية، ومن جميع القضايا التي وقعت في القرية، ويتساءل المؤلف عن كيفية تفسير كل من نمط الشيخ طلبة، وعبد المقصود من المثقف الريفي، فهما يتفقان في توظيف الثقافة خدمة للفئة الاجتماعية التي ينتميان لها، بيد أنهما يختلفان في أن الشيخ طلبة يظل بعيداً عن مراكز النفوذ، وعبد المقصود يصل إلى مراكز النفوذ في القرية، ويخوض صراعه من موقع قوة، وما توصل إليه الدكتور الباردي هو أن كلاً من الشخصيتين، قد جسد الصراع الطبقي الذي يستحيل أن يختفي ويتوارى عن الوجود في المجتمع، فالإقطاعية التي ما تفتأ تدافع عن وجودها الاقتصادي والاجتماعي، تبدو من خلال شخصية الشيخ طلبة مصيرها إلى زوال واندثار، وأما الشيخ عبد المقصود صاحب التوجهات الرأسمالية يبدو في صورة حيوية ويافعة.

وتجلت صورة المثقف الذي يسكن الريف في رواية«موسم الهجرة إلى الشمال»، ولكن بنمط مغاير مثلته شخصية مصطفى سعيد، فهو ليس من أصل ريفي، فقد ولد في مدينة الخرطوم، وكان من الأوائل في مرحلته التعليمية، كما أن تكوينه لم يقتصر على الثقافة الشرقية وحسب، بل إنه نهل من الثقافة الغربية، وفي رواية «حبيبتي مليشيا» لتوفيق فياض، برزت المرأة الفلسطينية المثقفة، كمهاجرة مع آلاف الفلسطينيين المهاجرين، ومن الأسئلة التي تنتصب ،أسباب هجرة الأبطال في الروايات، وهو ما حاول الدكتور الباردي أن يجد له إجابة شافية، فجميع الروايات التي تعرض لها مرّ أصحابها بتجربة الهجرة، باستثناء بطلي روايتي «اللص والكلاب»، و«الطيبون»، ويرى بأن هذه الهجرة في غالبية الأحيان هجرة اضطرارية، وإن لم تكن طلباً للعمل، فهي لسببين رئيسين: اقتصادي، وسياسي، ويستدل المؤلف على هذا الأمر بتقديم أمثلة واقعية من الروايات المدروسة من قبله، فمنصور عبد

السلام هاجر من أجل العمل، بسبب أنه لم يُلف عملاً في وطنه، بالإضافة إلى أن السلطة قامت بطرده من الجامعة، وكذلك الشأن بالنسبة لفياض الذي فرّ من مضايقات السلطة السياسية، وأما «فرح» في رواية «بيروت 75»، فقد هاجر من دمشق إلى بيروت بحثاً عن الشهرة والثروة.

وأما مثقف المدينة، فقد توصل الدكتور محمد الباردي إلى أن أغلب المثقفين في الروايات التي تعرض لها، هم مثقفو مدن «فسعيد مهران ومنصور عبد السلام وكريم الناصري ولينا فياض وسامي فياض وقاسم وعادل كلهم أبناء المدينة العربية فيها نشؤوا وتعلموا واشتغلوا وعانوا ومارسوا السياسة أيضاً فمنصور عبد السلام عاش في مدينة عادية شوارعها قذرة، وتحتوي على المسجد الكبير، وسوق الخضار، ومكتبة الأحول، والجامعة حيث درس التاريخ المعاصر، وهي أيضاً مدينة المظاهرات والسياسة التي بواسطتها توصل أحد رفاقه القدامى إلى أن تكون له حديقة ويعيش في الحديقة ثلاثة طواويس وغزلان زيادة مائة وسبعة عشر نوعاً من الزهور والنبات، ومدينة كريم الناصري مدينة صناعية سكانها فلاحون خانتهم الأرض، وهي مدينة المنظمات السياسية والمعتقلات، وقد حاول كريم الناصري عبثاً أن يجد فيها يقينه الضائع،أما مدينة سعيد مهران ففيها المعتقل الذي خرج منه، وفيها جريدة الزهرة والقصر رقم 19 وساكنه وحجرة الشيخ علي الجنيدي، وبابها المفتوح ليلاً نهاراً والقرافة والبوليس أيضاً.

أما المدينة التي عاش فيها فياض فهي مدينة تطارد التقدميين، وهي مدينة عمالية من مدن سورية إذ نمت فيها الحركة النقابية.ففيها تعلم فياض ألف باء الثورة، وفيها اضطر إلى الانقطاع عن التدريس وأجبر على مغادرتها لمواصلة الكفاح في حين زج بالكثير من الرفاق في السجون، وفي رواية« المنعرج» لا تتخذ المدينة شكلاً معيناً فسواء أكانت مدينة هي إلى القرية أقرب ذات الأسواق العتيقة، لم تمسسها يد الحضارة إلا بمقدار ضئيل، أو مدينة عصرية بضواحيها الثرية كالمنزه وسكرة فهي مدينة متخلفة مادياً وفكرياً تبحث عن منفذ للخروج من هذا التخلف، وهي في بحثها رهينة المدينة الغربية الثرية المتحضرة»(05).

وفي رواية «الطيبون» لمبارك ربيع، تتسع آفاق المدينة، حتى أضحت مدينة العلم والجامعة، وبناء على هذا فالمواقف تتعدد وتتنوع، كما تتناقض وتختلف، وتتميز هذه المدينة بأنها مدينة يعيش فيها «الطيبون» من أصحاب المتاجر الكبيرة، والمشاريع الخيرية كما أنها في الآن ذاته مدينة الحانة، وتجلب إليها مختلف الأصول والنماذج، فقاسم من أصل ريفي، والأستاذ النوري صاحب طبائع غريبة، وشطحات صوفية، وقد تجلت مدينة بيروت كمدينة

للمتناقضات والفكر الحر،في كل من روايتي«أصابعنا التي تحترق» لسهيل إدريس، و«أنا أحيا» لليلى بعلبكي.

وعن المثقف المهاجر، فقد برز من خلال العديد من الروايات، وهجرته كانت أحياناً داخلية، وفي أحايين أخرى خارجية، فعادل في رواية «المنعرج»، هاجر إلى خارج المدينة العربية، إثر دراسته في فرنسا، وكذلك الراوي في«الفلاح»، فقد عاش بباريس، ودرس هناك، وكذلك مصطفى سعيد،فقد انتقل من محطة إلى أخرى، من وطنه إلى القاهرة إلى انجلترا، وذلك بصدد استكمال دراسته الجامعية، وكذلك الراوي فقد مر بنفس التجربة، كما عاش منصور عبد السلام في الغرب، حيث إنه درس هناك، وباقي المثقفين،فإن هجرتهم تندرج في إطار الهجرة الداخلية،فالبطل ينتقل من بلده الأصلي إلى بلد عربي آخر، ومن أهم ما أشار إليه المؤلف في هذا الشأن أن المثقف قد تبدى في الرواية العربية بمنزلة رابط دقيق بين القرية والمدينة، وظهر هذا الأمر على مستويين:

«أ- على مستوى الثقافة التي يحملها وهي ثقافة المدينة، فعبد المقصود مثلاً أو الأستاذ ريان، قبل أن يصبحا مدرسين في القرية، كانا قد تعلما في مدارس المدينة ومعاهدها. فهما إذن بثقافتهما العصرية يجسمان التواصل بين المدينة والريف.

ب- على مستوى القضايا والمشاكل التي يعيشها المثقف نفسه، فما يلفت انتباهنا توق المثقف إلى الهروب من المدينة إلى القرية بشكل أو بآخر.فقد لاحظنا كيف التجأ مصطفى سعيد إلى القرية فاراً من مشاكل المدينة الغربية وهمومها، وقد لاحظنا أيضاً ذلك الحنين الذي ينتاب المثقف أصيل القرية من حين لآخر، فيعود إليها وإذا به يجد نفسه يتخبط في مشاكل عويصة تشبه مشاكل المدينة. فذاك ما حدث للراوي في «موسم الهجرة إلى الشمال» والراوي في«الفلاح» وتوهمنا الرواية العربية بالعدوى التي ينقلها المثقف من المدينة إلى الريف»(06).

وفيما يخص الطبقات التي انحدر منها المثقفون الرئيسيون، فهي«طبقة الفلاحين والطبقة الكادحة وطبقة البرجوازية بصنفيها،فعبد المقصود مثقف القرية ابن فلاح، يعمل«باليومية» في عائلة رزق بيه، وفرح ابن فلاح، ذلك القروي القوي الذي كان يتلاعب بقدره ويرمي بكتبه التي يدمنها إلى النيران التي يحرق بها أعشاب الحقل الطفيلية القارة.

وقد انحدر قاسم في رواية «الطيبون» من أصل فلاحي، فقد كان أبوه قبل موته فلاحاً في القرية، شريكاً لأخيه الأكبر الذي حاول اغتصاب أرضه منه، وكذلك كان كريم الناصري ابن فلاح فقير يحرث الأرض ويبرد ويجوع ويمرض، من عشيرة جائعة أكلها جفاف الأرض، أما سعيد مهران فهو ابن عامل في حي الطلبة، وفياض ابن مدلل لبحار«عتيق» عربيد وفاسق

وبقية الأبطال الرئيسيين ينحدرون من البرجوازية، فعادل ابن الشيخ حامد، وهو حلاق متواضع لم يكن ينتظر من دكانه الكثير لكنه مع ذلك أسند إدارة شؤون المحلّ إلى شاب فقير ربّاه في بيته، وإذا كان مؤلف رواية «أصابعنا التي تحترق» لم يحدد لنا بالضبط الإطار الاجتماعي الذي منه ينحدر بطله سامي فإننا نفهم من خلال أحداث الرواية أنه من أسرة تعرف رفاه العيش إذ تسمح لنفسها بالاصطياف على بضع خطى من قرنايل، ولكن مركزه الاجتماعي ما أرضى أخت إلهام البرجوازية فاعترضت على الخطوبة، وهذا يدل على أن عائلته دون وضعية البرجوازية.

أما دهرية فهي تنتمي إلى أسرة تعيش من التجارة إذ كان والدها صاحب دكان صغير في بلاد الهجرة، فقط تنحدر لينا فياض من البورجوازية الكبرى فقد أثرى أبوها من بيع الخردات في سوق أبي نصر مغتنما فرصة الحرب الكونية الثانية»(07).

وقد خلص الدكتور محمد الباردي في ختامه لهذه القضية أن أغلب المثقفين الرئيسيين ظهروا من خلال الرواية العربية على أنهم ينتمون إلى الطبقة الفقيرة والمتوسطة، وأما حضور المثقف البورجوازي فهو قليل، وبدا ذلك بصورة جلية، ومن القضايا التي أبرزها المؤلف: المهنة، والوضعية العائلية، والوضعية السياسية والدينية، والمثقف وجهاز الحكم.

وأما المثقف المنتمي فيعد كل من عبد المقصود، وعادل بطلي روايتي «الفلاح» و«المنعرج» من المثقفين المنتمين للسلطة السياسية القائمة، وباقي الشخصيات الأخرى التي برزت في مختلف الروايات التي دُرست، فهي شخصيات لا منتمية، ويقسمها الدكتور محمد الباردي إلى قسمين أساسيين:

«1. قسم يشمل كل الشخصيات التي ترفض جهاز الحكم عن وعي وإدراك رغم ا لأسباب المتنوعة التي تدعوها إلى هذا الرفض، وهذه الشخصيات نجدها مصورة في روايات «اللص والكلاب» و«أصابعنا التي تحترق» و«الوشم» و«الثلج يأتي من النافدة» و«حبيبتي ميليشيا».

2. قسم يشمل الشخصيات التي لا تبدو منتمية، لكنها لا تتخذ موقفاً سياسياً واضحاً، وهي شخصيات روايات «أنا أحيا» و«الطيبون» و«بيروت75»»(08)، وفي نهاية هذا الفصل أوجز الدكتور محمد الباردي سمات الحداثة التي تجلت في المثقف الحديث، بمختلف صوره المتعددة والمتنوعة، وهي على النحو الآتي:

«-1- أن كل المثقفين تقريباً تكونوا في المدارس الحديثة، وعدد كبير منهم تعلموا في الجامعات العربية الحديثة أو في الجامعات الأجنبية، وهذا مما يجعلنا نقبل فكرة هامة وهي أن التعليم الذي تلقوه هو تعليم حديث وليس تقليدياً.

-2- إن بعض المثقفين لم يكتفوا بالتكوين العلمي الذي تلقوه في هذه المدارس والجامعات، بل تعلموا من الكتب التي يصفها أحدهم بأنها الكتب الجيدة، وهي لاشك ليست تلك الكتب الصفراء التي كان يلتجئ إليها المثقف التقليدي بل هي كتب سياسية جديدة أو إيديولوجية حديثة.

-3- إن هذه الثقافة الحديثة تبعد المثقف عن معتقداته الدينية السائدة وبالتالي فهي تحرر عقله مما هو مألوف وقائم، فهو إذا يصبو إلى فكر علماني»(09).

قضية المثقف في الرواية العربية المعاصرة

تنصرف القضية في دلالتها إلى أنها عبارة عن قول مشكل من الموضوع، والمحمول، ويمكن أن تحتمل الصحة أو الخطأ، أي الصدق أو الكذب، ويمكن أن يكون هذا القول موضوعاً من مواضيع البرهنة،كما أشار إلى ذلك المعجم الوسيط، وبمفهومها العام فهي فكرة تلقى بغرض إلقاء الضوء عليها،إن كانت صحيحة أو خاطئة، أما أدبياً فهي:«مسألة تتركز في ذهن الفنان أو الأديب، ويلتزم بالسعي لتحقيقها بجهاده المتواصل من خلال الآثار التي ينتجها»(10).

وقد تعرض الدكتور محمد الباردي إلى جملة من قضايا المثقف التي تناولتها الرواية العربية المعاصرة، وعلى رأسها قضية الحرية،فلا ريب أن الحرية تظل هاجساً مؤرقاً بالنسبة للأديب والفنان، وتبقى شغله الشاغل على مر الحقب والأزمنة، وقد حاول عبد الرحمن منيف تفسير هذه القضية، عندما كان بصدد شرح أعماله الأدبية، فقال: «الموضوع الأساسي لما أكتب هو حرية الإنسان، أي حرية المواطن في الفكر والعمل، في التعبير وفي السفر، في المراسلة وفي المعتقد أي الحريات البسيطة التي نصت عليها شرعية حقوق الإنسان هذه الحريات غير متوفرة في البلاد العربية وبمجرد المطالبة بها يعتبر تحدياً للأنظمة القائمة، ما يتفرع عن هذا الحقّ الأساسي المعترف به في أنحاء عديدة من العالم وما يترتب عن المطالبة به. السجن الاضطهاد، حرمان الإنسان من حق العمل وحرمانه من حق الحياة أيضاً، هذه الأمور شغلتني في السابق ولا تزال وأعتقد أن الدفاع عن المواطن من أجل الوصول إلى هذه الحقوق البسيطة حقّ مشروع وأساسي»(11)، وبالنسبة للمفهوم الأخلاقي لقضية الحرية، فقد تعرض المؤلف إلى قضية سعيد مهران، فهي تعدّ قضية حرية وتحرر، ومن أجلها حمل المسدس بغية السرقة، كما تسلح بقراءة الكتب والتعلم، وقد أودع في غياهب السجن من أجل قضيته، فمعركة سعيد مهران كانت بامتياز معركة حرية، وأما قضية لينا فياض في رواية «أنا أحيا» لليلى بعلبكي،فقد كانت قضية حرية بمفهوم اجتماعي، وتبدت الحرية بمفهوم الديمقراطية في مشكلة الفلاح ، وتبناها عبد المقصود في رواية«الفلاح» لعبد الرحمن

الشرقاوي، كما طرحت نفس القضية في رواية «الأشجار واغتيال مرزوق» لعبد الرحمن منيف،فقد طرحها منصور عبد السلام، فهي قضية حرية العمل، إلى جانب حرية سياسية، كما طرحت نفس القضية على فياض، وهو الشخصية المثقفة، الذي برز في رواية «الثلج يأتي من النافذة» لحنا مينة، بيد أنها تجسدت بشكل مغاير عن الرواية السالفة، وطرحت قضية الحرية بمعنى الاستقلالية في رواية «أصابعنا التي تحترق» لسهيل إدريس، من خلال شخصية سامي، فسعى إلى ممارسة فكر حر، وهي عبارة عن حرية تتميز بالانتقاد المستقل، كما تجلت قضية الحرية بمعنى مقاومة الاستعمار والامبريالية في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال»، فهو من خلال مأساته يطرح قضية حرية الشعوب قاطبة، وحقها في تقرير مصيرها،وهزيمة مصطفى سعيد - كما يرى المؤلف - هي هزيمة للحرية في أوربا ذاتها، وكذلك الشأن في قضية المرأة الفلسطينية دهرية، فقضيتها هي قضية سياسية، وهي تسعى وتناضل بغرض تحقيق حريتها السياسية، وتحقيق سلطة شعب بأكمله، ظلم وشُرد، وتفرق على أرض وطنه، كما أبرزت دهرية قضية المساواة بين المرأة والرجل، في الكفاح والنضال وحمل السلاح، فحاولت إقناع المسؤولين العسكريين،في المقاومة، بضرورة حملها السلاح، وأن ذلك حق طبيعي لها تتساوى فيه مع الرجل.

ومن الإشارات الهامة التي لفت إليها الانتباه الدكتور محمد الباردي في سياق حديثه عن الحرية بمعناها المضاد، تدوينه لملاحظتين تعدان غاية في الأهمية، وهما:

«-1- إن الحرية بصفة عامة لدى المثقفين العرب تنبع من مفهوم التحرر من كل الضغوط التي تمارس على الفرد أو الجماعة،وهذه الضغوط هي الخيانة بالنسبة لسعيد مهران، وهي الكبت الاجتماعي والنفسي بالنسبة للينا فياض وقاسم وهي كذلك القيم الاستغلالية الطبقية بالنسبة لفرح وياسمية وهي الكبت السياسي السلطوي والحزبي والاستعماري بالنسبة لعبد المقصود ومنصور عبد السلام وكريم الناصري وفياض ومصطفى سعيد ودهرية في النهاية.

-2- لعله من الصعب أن نفصل بين المسألة الاقتصادية والمسألة السياسية في قضية الحرية عند المثقف العربي فالأولى مرتبطة بالثانية ارتباط النتيجة بالسبب.

وهكذا يبدو لنا في النهاية أن قضية المثقف العربي الأساسية هي قضية الحرية بمفهومها الشامل فهي حيناً حرية سياسية تعني الديمقراطية وحرية ذاتية تعني تشبث المواطن بحقوقه الشخصية، وهي حيناً آخر تعني مقاومة الاستعمار والامبريالية والتخلف الاقتصادي والاجتماعي.فهي إذن قضية مطروحة على مستوى الفرد والمجموعة.

إلا أن الفكرة الرئيسية التي يجب الانتباه إليها هي أن المثقفين المحدثين العرب كما تصورهم الرواية العربية المدروسة يعانون جميعاً وبدون استثناء من أزمة الحرية فهي أزمة المتحزب وغير المتحزب وأزمة المنتمي إلى الجهاز الحاكم وأزمة المستقل، وهي أزمة المثقف المنحدر من طبقة الفلاحين وأزمة ابن البورجوازية الصغيرة والكبيرة وأزمة ابن الكادح والفلاح. فهي إذن أزمة سعيد مهران وعبد المقصود ومنصور عبد السلام وفياض وكريم الناصري ودهرية وعادل من ناحية، وأزمة لينا فياض وسامي ومصطفى سعيد وفرح وياسمينة من ناحية أخرى، وهي أزمة عادل وعبد المقصود من ناحية، وأزمة بقية الأبطال الرئيسيين من ناحية أخرى. وعلى هذا الأساس يمكن القول إن البطل الروائي من هنا مثقف متوحد مهما تعلمن أو تفلحن، وقد تظهر هذه الملاحظات كإسقاطات لأنها تضع جميع الإنتاج في قفص واحد،إلا أننا لسنا بصدد الحديث عن الاستثناءات أو الحالات المنفردة بل عن تجربة عربية ككل انطلاقاً من نوع ومن تشكل الفكرة البطل لأننا لا نستطيع الحديث عن (جان فالجان) رواية عربية أو (مدام بوفاري) رواية عربية أو الأخوان (كارامازوف)، الرواية العربية بقدر ما نعثر على شخصيات من جليد لا تلبث أن تذوب مع نهاية كل رواية، ومع ذلك يجدر أن نلاحظ أن هذه القضية لا تطرح مطلقاً على ما يمكن تسميته بالمثقف التقليدي القديم، فهي لم تطرح على شخصيات مثل الشيخ طلبة في رواية «الفلاح» أو الشيخ الجنيدي في رواية «اللص والكلاب»، أو الأستاذ النوري في رواية «الطيبون»، فهي إذن قضية مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالثقافة الحديثة أساساً. ولعل ذلك يعود إلى سبب رئيسي يتمثل في أن المثقف التقليدي مرتبط بقيم قديمة موروثة ليست الحرية قيمة من قيمها،فلعلنا لا نخطئ إذا أكدنا أن قيمة الحرية في الفكر العربي ظهرت في أعقاب القرن التاسع عشر مع مطلع فجر النهضة، وهي وليدة اتصال أدباء النهضة ومفكريها بأوروبا»(12).

وقد انطلقت قضية الحرية من منطلقات متعددة ومتنوعة،و أوجزها الدكتور محمد الباردي على النحو الآتي:

أ. المنطلقات الطبقية: فمما لا يشوبه ريب أن الحاجة الاقتصادية، هي القاسم المشترك بين كل من فرح وياسمينة، وقاسم، ومنصور عبد السلام، وهم أبطال روايات: «بيروت75»، و«الطيبون»، و«الأشجار واغتيال مرزوق»، ومن هذه الشخصيات منصور عبد السلام الذي كانت حاجته المادية من مظاهر التعسف السياسي، وتختلف شخصية لينا عن طبيعة قضية ياسمينة البورجوازية الصغيرة، «ذلك أن لينا فياض ابنة البورجوازية الكبيرة في أعقاب الخمسينات وبداية الستينات مثقفة، طالبة،تحاول انطلاقاً من وعيها الطبقي أن تتبنى قضية حرية المرأة

الشرقية على أساس أن المرأة وحدها هي التي استطاعت أن تتمثل الدّلالة الحضارية لعصرنا،بينما تخلف الرجل عن الركب مطمئناً إلى خلود أسوار الحريم، فنراها ثائرة على سلطة أبيها لا لأنه أب برجوازي، بل لأنه برجوازي لم يستطع أن يتمثل الدلالة الحضارية لقضية حرية المرأة في المجتمع العربي. فكأن لينا فياض تريد أن تحمل طبقتها البرجوازية التي تجري وراء الثروة والربح، لا على استعباد المرأة وامتلاكها، بل على تحريرها. وهي من خلال وعيها مدركة لصورة المرأة الأوروبية المتحررة من عبودية الرجل، ولدور البرجوازية الغربية في إعطاء المرأة حقوقها في التصرف في حياتها الذاتية، على هذا الأساس فقط نفهم موقفها من الطالب الشيوعي، فقد كان من المنتظر أن تجد لديه تحقيقاً لآمالها وطموحاتها، إذ أن وجهة النظر الماركسية في المرأة تتنافى تنافياً مطلقاً مع اعتبارها عاراً أو رجساً من عمل الشيطان، بل تراها كائناً متطوراً مع تطور المجتمع وترى في تخلفها رجساً من عمل المجتمع الطبقي. وهكذا يكافح الإنسان الماركسي من أجل تحرير المرأة في موازاة كفاحه من أجل تحرير المجتمع»(13).

ب. المنطلقات الحزبية: وقد ظهرت هذه المنطلقات في مثقف رواية «الفلاح»، حيث إنه اعتقد إمكانية تحقق حرية الإنسان، وقد انطلق من موقف حزبيٍ واضح يعود إلى انتماءاته القديمة للحزب الشيوعي في مصر، الذي طالما ناقش مسألة الحريات والديمقراطية «فعبد المقصود يمثل البرجوازية الصغيرة في الريف التي تسعى كما يرى عبد الله العروي إلى السلطة والنفوذ وإلى كسب مواقع هامة في المجتمع، والتي يعتمد عليها الحزب السياسي (الاتحاد الاشتراكي) الذي ينتمي إليه.ولذلك فهي التي تتزعم قضية الفلاح، ولكنها من خلال تزعمها لهذه القضية تسعى إلى تحقيق طموحاتها وتكريس قيمها عن طريق هذه الكتلة الاجتماعية التي تسعى إلى تحقيقها (برجوازية صغرى+ فلاحون) مجابهة لطبقة الإقطاع والبرجوازية الجديدة المتحالفة معها. وبالتالي تصبح قيمة الحرية من أهم القيم التي يجب تكريسها.

وفي رواية «الثلج يأتي من النافذة» تبنى فياض قضية العمال، كما تبنى عبد المقصود قضية الفلاحين. وقد لاحظنا أن فياضاً منتم إلى الحزب الشيوعي السوري، فهو من موقع المتحزب الثوري الذي يؤمن بتحالف المثقفين الثوريين مع الطبقة العاملة تبنى مسألة الحرية الفردية والحرية السياسية... بيد أن حنا مينة وهو في الأصل عامل يبدو لنا متقدما على عبد الرحمان الشرقاوي في طرحه لقضية الحرية ولقضية التحالف خاصة من أجل تحقيقها إذ يقدم لنا فياضاً في صورة الرجل الذي يأخذ الثورة من

العامل مشيراً إلى إخفاق البرجوازي الصغير في أداء دوره، فخليل العامل النقابي هو الذي يعلم فياضاً ألف باء الثورة،كما يلقي عليه أثناء هجرته في لبنان دروساً في الصمود والنضال، فكأنه يرى أن هذا التحالف من أجل تحقيق (كتلة اجتماعية) جديدة تكون الطبقة العاملة محوراً لها. ولعله في هذا التصور يعتمد على نظرية الحزب الذي ينتمي إليه، وهو حزب يتبنى بدون شك التحليل الماركسي للمجتمع، والموقفان (موقف عبد المقصود، وموقف فياض) تفصل بينهما تاريخياً هزيمة العرب في حرب جوان 1967م، فلعل هذا الحدث التاريخي يعبر إلى درجة ما عن عجز البرجوازية الصغيرة في خوض حركة التحرر الفعلي للمجتمع العربي، فهو إذن تعبير عن أزمة البرجوازية الصغيرة وعن أزمة المثقفين بصفة خاصة،فلعل ذاك ما يريد أن يقوله حنا مينة في روايته «الثلج يأتي من النافذة» معلنا عن ولادة المثقف العضوي في المجتمع العربي المعاصر»(14).

كما تجلى المنطلق الحزبي في رواية «الوشم» بوضوح،عندما طُرحت قضية الحريات الأساسية، فقد كان كريم الناصري ينتمي إلى حزب البعث العراقي، ثم انسحب منه بعد أن أُجهضت أحلامه، وبخرت تطلعاته، كما ظهر المنطلق الحزبي في رواية «حبيبتي ميليشيا» من خلال المثقفة دهرية، فهي مناضلة من مناضلات منظمة التحرير الفلسطينية (فتح).

ج. المنطلق الليبرالي: وقد ظهر هذا المنطلق، مع سامي الذي انطلق منه،في رواية «أصابعنا التي تحترق»، فقد خامر هذه التجربة عندما عاش في الغرب، وتشبع بالثقافات الأجنبية، فهو يؤمن بتعايش الثقافات مع بعضها البعض، كما أنه يطبق الفكر الحر في مساره، ويؤمن بمبادئه.

د. المنطلق الحضاري: وقد مثله مصطفى سعيد، وهو يسعى إلى الثأر من الغرب، فقد «كانت شرقيته هي الواعز الأول و الأخير فللعالم عنده وجهان شرق وغرب ولا وجه ثالث لهما. وبين الوجهين عداوة لا تنتهي. وكل المحاولات لإصلاح العطب، ورأب الصدع باءت بالفشل. ولما فشلت المحاولة تلو المحاولة أحسّ مصطفى سعيد أنه لم يعد له مبرر للبقاء في بلاد تموت من الثلج حيتانها، ولئن كانت الهجرة إلى الشمال هجرة سلبية في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» فإن الهجرة إلى الجنوب يجب أن تكون إيجابية إذ يجب على الشرق أن يعرف منابع حضارته، وأن يكتشف مقوماتها، وأن يصنع تاريخه بنفسه حتى يقيم عالماً متكاملاً يمكن الانتماء إليه، وحتى يضمن حريته

واستقلاله ذلك هو البعد الحضاري الواضح الذي تشير إليه مأساة مصطفى سعيد وقضية الحرية عنده»(15).

ومن منطلق مصطفى سعيد طرح منصور عبد السلام قضية الحرية،فقد رأى مشكلته من زاوية حضارية عامة، وكثيراً ما كان يلتجئ إلى المقارنة بين الحضارتين الشرقية والأوروبية، وتجلى من خلال مقارنته أن الحضارة الأوروبية هي الحضارة المثلى والعالية،التي لا يمكن الارتقاء إليها، وأما الشرق فقد ظل موطناً للكآبة والشجن، وعليه فمأساته هي مأساة حضارية بامتياز.

ومن النقاط التي كشف عنها الدكتور محمد الباردي الحجب ،سلوك المثقف تجاه قضيته، فأبرز ما يمكن قوله في هذا الشأن هو أن مثقف المدينة عاجز وليست له قدرة على مواجهة قضيته، وهذا ما ظهر في أغلب الروايات المدروسة، والأزمة التي عانى منها المثقف وكانت تقف أمامه بالمرصاد هي تلك المقابلة بين الحلم والواقع، والخيال والحقيقة،فيتبخر طموح ذلك المثقف أمام مرارة الواقع وقسوته، وكثيراً ما كان الهروب المعنوي والمادي الطريق الذي يُلتجأُ إليه لتجاوز شتى المعضلات والأزمات.

المثقف وتجليات مواقفه في الرواية العربية المعاصرة

يتساءل الدكتور محمد الباردي عندما تعرض لموقف المثقف من المثقف،كيف أنه نظر لنفسه؟ وهل أدرك بوعي حالته النفسية والفكرية؟ وهل قيم سلوكه وموقعه في المجتمع؟ وينظر لهذه المسألة الهامة من جانبين اثنين: جانب موقف المثقفين من أنفسهم، وذلك من طريق الحوار الداخلي، وموقف المثقفين الأبطال من بعضهم، ومثال ذلك موقف الراوي في «موسم الهجرة إلى الشمال» من مصطفى سعيد.

ولتجلية موقف المثقف من المثقف،تعرض المؤلف إلى العديد من الروايات،من بينها رواية «الوشم»، ففي هذه الرواية يضع المثقف نفسه في قفص الاتهام، ويقوم بمراجعة ومحاكمة نفسه «فكل الأبطال الرئيسيين من المثقفين قد ارتدوا سياسياً، وقد أصابهم هذا الارتداد لأنهم مثقفون قبل كلّ شيء، ذلك أن بقية المعتقلين من أمثال علوان الحلاق لم يتراجعوا عن التزاماتهم السياسية وظلوا متشبثين بالتنظيم رغم التعسف الذي لحقهم أيضاً، ويفسر كريم الناصري جبنه وتخاذله بطبيعة الثقافة، فلو لم يقرأ الكتب ولم يدخل المدرسة لكان شجاعاً متحملاً قدره صامداً، وهم يعبرون جميعاً عن الفكرة نفسها تقريباً عندما يحاولون التشكيك في قيمة الثقافة ودورها في النضال فيسخرون من زميلهم في المعتقل (رياض قاسم) وهو تلميذ قديم لكريم الناصري، فقد قابل حسون انفعال رياض قاسم الذي طفق يقرأ قصيدته بسخرية قاتمة يجسّم تخاذله المأسوي، وهم كذلك يبررون

انهزاميتهم بطبيعة المثقف الانتهازية الميالة إلى تبرير الأمور و عقلنتها واغتنام الفرص عندما تكون مواتية. فلما اتهمهم علوان بأنهم المسؤولون وحدهم عن هذا الوضع السيئ الذي وجدوا فيه أنفسهم لبعدهم عن الواقع وغوصهم في النظريات لم يردوا على التهمة بل قبلوها واعترفوا بها»(16)، وأما رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ، فالمثقف ممثلاً في سعيد مهران، لا يقوم بانتقاد نفسه، بل إنه يصب جام انتقاداته على أستاذه رؤوف علوان، موجها له تهمتين أساسيتين، وهما: تنكره لمبادئه التي كانت راسخة سلفاً فيه، والثانية فهو يصفه بالرجل الانتهازي، وبأن الانتهازية هي المبرر الوحيد لمختلف التصرفات والدروب التي سار فيها، وفي رواية«موسم الهجرة إلى الشمال» يجد المرء نفسه أمام مثقفين اثنين ،هما: مصطفى سعيد، والراوي،فالراوي المتعلم في الغرب يكشف عن انطباعه، وموقفه من المثقف، وذلك بإعرابه عن موقفه من مصطفى سعيد، ومن نفسه، وتعدّ قضية النقد الذاتي من القضايا البارزة على مستوى الرواية العربية المعاصرة، ويتحدث الدكتور محمد الباردي عن هذا الموضوع قائلا: «أما موضوع النقد الذاتي فيمكن أن نقول إنه واحد إذ لم يتغير على امتداد هذه الفترة الزمنية. فالمثقف يوجه إلى نفسه تهمتين هامتين هما تخاذله وعدم ثباته على المبدأ من ناحية والجري وراء المصلحة أو الانتهازية من ناحية أخرى. وجلّ الأبطال المثقفين مهما حاولوا الدّفاع عن أنفسهم يقبلون هاتين النقيصتين وبعضهم يستمرئ الإحساس بضعفه وعدم قدرته على تجاوز هذه النقائص.فقط فياض الذي نقد نفسه استطاع أن يتجاوز النقيصة ليكون فاعلا.

إن المثقف العربي من خلال الرواية العربية يمرّ بمرحلة تشكيك قاسية، فهو يشك في ذاته وفي قدراته على التغيير ولعلّ هذه المرحلة ظرفية مرتبطة بقتامة المناخ الاجتماعي والسياسي الذي وجد فيه المثقف نفسه ومع ذلك لا يفوتنا أن نلاحظ الخلفيات الإيديولوجية التي تقف وراء هذا الموقف السلبي من المثقف. ذلك أن الروائيين المهتمين بهذه المسألة يقدّمون البديل الذي سيكون قادراً على التغيير.فعبد الرحمان الشرقاوي والطيب صالح يقترحان علينا الفلاح وعبد الرحمان منيف يرى البديل في البائع المتجول ومجيد الربيعي يراه في الحلاق أما حنا مينة فبديله العامل وهكذا يفقد أصحاب الحل والعقد دورهم في المجتمع ويترك صاحب العلم مكانه لصاحب الساعد المفتول، ولعله من البديهي أن نقول إن هذا الموقف حديث في الفكر العربي المعاصر. وهو متأثر أساساً بالتحليل الطبقي للمجتمع الذي يعلن عن بوادر عصر جديد يكون فيه صاحب الساعد المحرك الرئيسي»(17).

أما بالنسبة لموقف المثقف من المرأة، فكما يرى المؤلف،فإن الكثير من الأسئلة تطرح، ومن بين الأسئلة التي أثارها،ما هي دلالة المرأة عند المثقف في الرواية العربية؟ وهل نظرته إلى

المرأة هي نظرة على اعتبار أن المرأة كائن اجتماعي مستقل، وله مشاكل يستوجب حلها؟ أم أن نظرته على اعتبار أنها دلالة لمفاهيم أخرى متصلة بقضية المثقف نفسه؟ وهل وقع تطور في تصور هذه الدلالات عبر هذه المرحلة التاريخية الوجيزة نسبياً؟

إن حضور المرأة كما تجلى من خلال رواية «أنا أحيا» لليلى بعلبكي، هو حضور مكثف، وقد بدت لينا فياض فتاة بورجوازية، ومتمردة، وفي نظرها أن المرأة لابد أن تكون كائناً اجتماعياً له استقلالية في المجتمع، فالاستقلالية الشخصية هي الأساس الذي تنهض عليه رؤى وأفكار لينا فياض، وفي رواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ، فالمرأة حاضرة، وذلك من خلال شخصية نبوية،التي عاشرها المثقف سعيد مهران، وذلك قبل دخوله السجن، وتتحدد رؤية سعيد مهران للمرأة من جانب أنها بمثابة همزة وصل وفصل، ومن ناحية أخرى فهي التي جسمت القطيعة والروابط الاجتماعية الدقيقة، ومن خلال رواية «أصابعنا التي تحترق» لسهيل إدريس،فشخصية سامي بدت على أنها ذات صلة بجملة من النماذج النسائية،فاستطاع بحكم موقعه الثقافي والأدبي أن يستقطب إليه مجموعة من النساء المثقفات «الممارسات للأدب والثقافة، فقد تعرف على رفيقة شاكر وهي مدرسة سورية عن طريق الكتابة، ثم توطدت الصلة بينهما عندما جاءت إلى بيروت للاصطياف، وهي فتاة استطاعت أن تتجاوز حرمانها الجنسي وهو حسب رأيها مشكلة الفتاة الشرقية الأساسية، ولقد أدرك سامي بدوره أن قضية هذه المرأة هي أساساً قضية جنسية، ولذلك اختار أن يتعامل معها تعاملا جنسيا يساعده على الخروج من الرتابة، وتعرّف أيضا على سميحة صادق، المثقفة الجامعية المصرية التي ألقت محاضرة بدعوة من مجلة «الفكر الحر» وظلت الرسائل تربط بينهما لمدة طويلة، ومن خلالها عبّرت سميحة عن حبها لسامي، ولكن هذه المرأة ظلت رغم ثقافتها امرأة تقليدية عاجزة عن المجابهة الواقعية، مغرقة في نزعة رومنسية مما جعل سامي لا يستجيب لعواطفها، وقد مكنه العمل في المجلة من معرفة نموذج شاذ للمرأة العربية، وهذا النموذج يتمثل في الفتاتين سلمى العكاوي وعبلة سلطان وهما فتاتان مثقفتان إحداهما مؤلفة روائية، ولكن تحررهما الجنسي تجاوز الحدّ وبلغ الشذوذ، أما النموذج الرابع الذي تعرف عليه سامي فهو يتمثل في إلهام، وهي تلميذة تستعد للدخول إلى الكلية محافظة على صلتها بالعائلة وعلى احترام تقاليدها، ومع ذلك فهي مثقفة تفهم الأدب وتهتم، إذ تعي من قضايا الأدب أكثر مما تحتمله طالبة، ولها من الجرأة الفكرية في مناقشة بعض المسائل ما أثار انتباه سامي وإعجابه»(18).

وقد وقف سامي من كل هذه النماذج موقفاً وسطاً، وقد جسدت المرأة - كما يرى المؤلف - موقفه الحضاري الذي يتمثل في ملائمته بين الشرق والغرب، ومزاوجته بينهما، وأما

الراوي في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» فقد مثل مقابلة بين المثقف، والمرأة الشعبية، وتمثلت شخصية المرأة في رواية «المنعرج» في سلوى تلك المرأة المثقفة والمبدعة التي تكتب الشعر، وقد كانت تعيش في مدينة كبيرة، وتجمع بين تحفظات الشرق، وحرية الغرب، وموقف عادل من المرأة في هذه الرواية هو نفس موقف سامي، وذلك نظراً للقواسم المشتركة التي تجمع بينهما، فهما قد درسا في أوربا، وتأثرا بالأجواء السائدة هناك، وفي رواية «الفلاح» يصطدم القارئ بنموذجين نسائيين، النموذج الأول المتمثل في كل من إنصاف وتفيدة، يمثل البيئة الريفية، وأما النموذج الثاني فيمثل تلك المرأة التي احتكت بالمدينة، وهي امرأة متعلمة ومثقفة، وقد تجلى هذا النموذج في شخصية زوجة رزق بيه، ومن خلال رواية «الوشم» سعى كريم الناصري إلى الإجابة عن قضيته المطروحة من خلال ثلاثة نماذج نسائية، هي كلٌّ من:أسيل عمران، ومريم عبد الله، ويسرى، وفي رواية «الطيبون» لمبارك ربيع (1971) كانت المرأة بالنسبة للمثقف حاضرة. فهنية امرأة مثقفة، مديرة مدرسة ابتدائية تعرّف عليها قاسم عندما كان معلماً قبل التحاقه بالجامعة، وهي ذات أخلاق رفيعة لم تقف في وجه قاسم الطموح عندما قدّم طلباً في منحة جامعية، وبدورها قرّرت ذات يوم مواصلة دروسها الجامعية رغم بعدها فنراها تطلب من قاسم عندما التقت به بعد غيبة طويلة مساعدتها على مدها ببعض الدروس أو الكتب، ومن خلال حديثها إلى قاسم نفهم أنها تعاني بعض الأزمات النفسية نتيجة العلاقات الاجتماعية المتوتّرة داخل المدرسة والبيت فهي زوجة رجل استغل ظروف والدها أثناء المقاومة المسلحة في الدار البيضاء فعاشت معه بلا إحساس ولا عاطفة مثقلة بأحمال لم تساهم في خلقها، ثم لا تلبث أن تنقطع عن الدراسة والمهنة معاً متوهمة أن مشاكل الأسرة ستذوب في مشروع تجاري خيري إنساني، غير مدركة أن هذه المشاريع خليط يصعب الخروج منه، وفعلا لما انتقل إلى الجنوب لم يفلح أي شيء في استغراقها وإفناء طاقتها فاعتراها بعد شهور من العمل شرود ملازم متقطع ما لبث أن تطور إلى انهيار عصبي خطير ناتج عن تأثر نفسي»(19).

وقد تلخصت قضية هنية في أنها قضية المجتمع بأكمله، وليست حكراً على الرجل وحسب، بل إن كلاً من الرجل والمرأة يعيشانها، فهذا هو الموقف الجديد المتخذ من قبل المثقف في الرواية العربية المعاصرة، ومن خلال رواية «الأشجار واغتيال مرزوق» فالمثقف منصور عبد السلام، الذي يشغل منصب أستاذ جامعي، يتعرف على العديد من النساء، وهن لا يختلفن عن بعضهن البعض اختلافاً كبيراً، وما استطاع منصور عبد السلام تجليته وتوضيحه هو أن المرأة العربية هي في غاية العجز، وغير قادرة على أن تتحكم في مصيرها، وقد برز ذلك من خلال موقف الأب مع ابنته، كما أماط الحجب عن قضية أخرى وهي أن المرأة

العربية، قد صورت فساد القيم الاجتماعية، وفساد الواقع المعيش، وبالرغم من كل هذا فإن منصور عبد السلام، قد رأى من منظور وهمي أن المرأة بمثابة كيان منقذٍ، وأداة للتصحيح وللتخليص من مختلف المرارات المحيطة به، والمعترضة له، وفي رواية«بيروت 75» فموقف البطلين الرئيسيين من المرأة هو موقف مضبب وغامض، ومن الصعب إيجاد موقف واضح منها، وفي رواية«حبيبتي مليشيا» جسدت المرأة فيها حقها في الكفاح المسلح إلى جانب الرجل، من خلال رؤية دهرية التي نظرت للمرأة تحت لواء القضية الرئيسة، وهي قضية تحرير فلسطين، ولا ريب في أن الرواية العربية المعاصرة لم تقتصر على تناول موقف المثقف من المرأة العربية وحسب، بل جسدت حضور المرأة الغربية، و بالتالي فإن جملة من المواقف ستظهر وتطفو على السطح متعلقة بموقف المثقف منها ونظرته إليها، ففي رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» للطيب صالح، تجلى حضور المرأة الغربية بكثافة، حيث إن مصطفى سعيد اتصل بالكثير من النساء، ومع كل امرأة كانت له قصة تختلف عن الأخرى، وبعض قصصه كانت فيها شيء من الغرابة «وقد أعطى الكثير من النقاد المرأة الأوروبية في علاقتها مع مصطفى سعيد دلالة رمزية،فقد تحدث عبد الله إبراهيم عن دلالة جين مورس مثلاً قائلاً: أما جين مورس القطب المضاد فهي نتاج حضارة مضادة إلا أنها سيكولوجية شديدة الشبه بمصطفى سعيد وهي دون شك نتاج الوجه السلبي لحضارتها،إنها ابنة العنف ووسائل الاضطهاد، وقد حاول الأستاذ بكار تفسير هذه الدلالات فرأى فيها أوروبا العمالية بمنازعها التحررية وأوروبا المهوسة تحلم بالتغرب عن ذاتها في الأجواء الاكزوتيكية وأوروبا المسيحية تفيض جناناً، ومهما كانت هذه الدلالات الحضارية للمرأة في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» فإن العلاقة (امرأة-رجل) و(أنثى/ذكر) تلك الثنائية الأزلية تبقى الفكرة الأساسية في هذا الموضوع، فلئن انتصر مصطفى سعيد على هؤلاء النساء في بلدهن فإن انتصاره يظل دائماً انتصاراً وهمياً، فما من امرأة من هؤلاء النساء تجاوزت أوربيتها فعاد مصطفى سعيد إلى بلاد الشرق، وإلى سودانه خائباً»(20). كما تجلى حضور المرأة الأجنبية في رواية «المنعرج» لمصطفى الفارسي، وجسدت شخصية المرأة الأجنبية جيجي، وفي رواية «الأشجار واغتيال مرزوق» لعبد الرحمان منيف، حضرت المرأة الأجنبية متمثلة في الطالبة كاترين، التي أكدت من خلال هذه الرواية على تباين الحضارتين الشرقية والغربية، وبالتالي استحالة اللقاء بينها وبين منصور عبد السلام وفي رواية «حبيبتي مليشيا» لتوفيق فياض، يمكن أن نتحدث عن علاقة بين المرأة الشرقية والمرأة الأوروبية أي بين دهرية وجين، بيد أن هذه العلاقة لا تخلو من كل دلالة، ذلك أن جين وهي تعمل في إحدى الصحف الأنجلزية جاءت إلى أرض المقاومة الفلسطينية لتتعرف عن كثب على نضال الشعب الفلسطيني،فتلتقي بدهرية المسؤولة عن

الإعلام في الكفاح المسلح، وإذ رأت في فلسطين آثار المسيح فقد أدركت أيضاً الواقع العربي وصلته بالثورة الفلسطينية القائمة على التناقض، والنتيجة التي نخرج بها هي أن التعسف الذي تلقاه المرأة الفلسطينية من بعض الأنظمة العربية هو نفس التعسف الذي تعيشه المرأة الأوروبية في نضالها من أجل قضاياها السياسية المشروعة، وهكذا لم تشعر دهرية بأي إحساس بالغربة أو النشاز تجاه هذه المرأة، بل نراها على العكس، قد استطاعت أن تدخلها بسهولة في إطار النضال العربي، كما استطاعت أن تتجاوز حدود الخلاف الحضاري لتلتحم بهذه الرفيقة الأوروبية فتلتقيان معاً في ضمة جمعت بينهما، وهكذا يمكن أن نؤكد أن علاقة المرأة الفلسطينية بالمرأة الأوروبية تختلف نوعياً عن علاقة بقية الأبطال المثقفين بالنساء الأوروبيات، فلعل وحدة الجنس ساعدت على اللقاء بينهما، لكن الأهم إحساسهما معاً بأنهما تناضلان من أجل قضية متشابهة، وهي قضية التحرر من الاستعمار»(21)، ومن المواقف التي تصدى لها المؤلف، موقف المثقف من الجنس، وموقفه من الثورة، كما أبرز ثلاثة مواقف للمثقف العربي من الغرب، وهي: موقف وجداني متمرد، وموقف تبدى من خلاله المثقف في حالة استلاب، وموقف نقدي جدد فيه المثقف نظرته إلى الغرب.

خاتمة

نستخلص مما سبق، ومن خلال تطرقنا وعرضنا لدراسة ورؤية الدكتور محمد الباردي العميقة، لموضوع شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة، أن هناك جملة من الصور المتنوعة جسمت شخصية المثقف، وأن حضور المثقف في الرواية العربية المعاصرة، من خلال الحقبة التي سلط عليها المؤلف الضوء، هو حضور مكثف،جُسدت من خلاله شتى القيم، والانتماءات، والعلائق، والصور، «وهذه الصور – مهما تنوعت - لا تخرج عن صورة كبرى واحدة، هي صورة المثقف العربي الحديث تكويناً، وقضية ومواقف أيضاً، إنه ذاك المثقف العربي الذي عاش في الرّيف أو في المدينة، ذاك الذي أحاطت به ظروف اجتماعية صعبة هيأته لكي يصبح شخصاً ما اطمأن اطمئناناً كاملاً ولا عرف الراحة والهدوء.

ولئن وجد أحياناً في التنظيم السياسي القناة التي من خلالها يعبّر عن رغبته في التغيير والمتنفس لما يحس به من كبت،متمسكاً بقضيته الأساسية وهي قضية الحرية ومعتقداً أنها دواء علته، ولا شفاء بدونها، فقد ظلّ يجري وراء سراب ولا يجني إلا التعب،فكان صاحب قضية ولم يكن صاحب مواقف.

ذلك أن موقفه كثيراً ما يكون وجهاً من قضيته أو أداة من أدوات التعبير عنها.فيوم ينفك الحصار ويخرج المثقف من أزمته سيكون قادراً على اتخاذ مواقف مجرّدة. ويوم يجد

حلاً لقضية الحرية نهائياً سيكون مهيأً لمشاهدة العالم المحيط بعين صافية، ويسقط القناع وتتخذ المواقف حجمها الطبيعي.

بيد أن قيمة الحرية، وهي قيمة أساسية،قيمة غربية أساساً، طرحها الغرب على نفسه منذ قبيل الثورة الفرنسية. وقد أحس بها المثقفون العرب منذ نهاية القرن التاسع عشر، لكنها ازدادت إلحاحاً في الرواية العربية في هذه الفترة الزمنية الدقيقة»(22).

ولا يملك المتأمل والمقترب من دراسة الدكتور محمد الباردي، إلا أن يثني على الجهود التي بذلها في هذه الدراسة القيمة، والعميقة، فقد أماط الحجب على مرحلة هامة في تاريخ الرواية العربية، وأبرز من خلالها صورة المثقف بشتى تجلياتها ودلالاتها، وكشف أن الإبداع الروائي العربي غير عاجز ولا قاصر، فله قدرة على تمثل القضايا المعاصرة،فإضافته في هذا الميدان هي إضافة ثرة للمكتبة النقدية العربية، وما تجدر الإشارة إليه أن المؤلف كثيراً ما يُدعم مناقشاته وتحاليله بجداول إحصائية وتوضيحية يلخص من خلالها بدقة كل ما أحاط به سلفاً، وهذا ما أسهم في تقريب الصورة إلى ذهن القارئ، وإدراكه لما يُرمى إليه دون عناء، فلا يُمكن لأي دارسٍ لشخصية المثقف في الرواية العربية المعاصرة، أن يتجاور هذا البحث الهام والجاد، لاسيما أن موضوع تجليات المثقف وصورته في الرواية العربية لا يزال بحاجة إلى دراسات وأبحاث أخرى ترصد المراحل والأشواط اللاحقة التي قطعتها الرواية العربية.

الهوامش

1. محمد رجب الباردي:شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة،الدار التونسية للنشر، تونس، ط: 01، 1993م، ص:.12
2. محمد رجب الباردي: شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة، ص:34-.35
3. محمد رجب الباردي: المصدر نفسه، ص:52-.53
4. المصدر نفسه، ص: 60-.61
5. المصدر نفسه، ص: 70-.71
6. المصدر نفسه، ص: 74-.75
7. المصدر نفسه، ص: 82-.83
8. المصدر نفسه، ص: .110
9. المصدر نفسه، ص: .128
10. جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط: 02، 1984م، ص: .214
11. محمد رجب الباردي: شخص المثقف في الرواية العربية المعاصرة، ص: 131-.132
12. المصدر نفسه، ص: 148-.150
13. المصدر نفسه، ص: 154-.155
14. المصدر نفسه، ص: 157-.159
15. المصدر نفسه، ص: .163
16. المصدر نفسه، ص: 190-.191
17. المصدر نفسه، ص: 196-.197
18. المصدر نفسه، ص: 204-.205
19. المصدر نفسه، ص: 218-.220
20. المصدر نفسه، ص: 231-.232
21. المصدر نفسه، ص: 235-.236
22. المصدر نفسه، ص: 308-309.